

بسم الله الرحمن الرحيم

"حقيقة توحيد الأنبياء والمرسلين"

كتبه: فيصل بن محمد بن حميد القلاف

يوم الاثنين: غرة رجب سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة



الحمد لله رب العالمين، الإله الواحد الحق المبين، الباطن في القلوب حتى اطمأنت بوحدايته الضمائر، الظاهر للعقول حتى استنارت بالوحيته البصائر؛ فأشهد أن لا إله إلا هو، شهادة الرائي بعين اليقين، والمُصْغِي لفصيح السنة البراهين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين، إمام الموحدين وقُدوة العابدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن توحيد الله - جلّ جلاله - أعظم الحقائق وأرفع المطالب؛ فقد خلق الله الخلق لتوحيده؛ فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الدّاريات]، أي: ليوحدوني، وأرسل الرُّسل بتوحيده؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وأنزل الشرائع بتوحيده؛ فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وحقيقة هذا التوحيد الذي خُلق له الخلق، وُعثت به الرُّسل، ونزلت به الشرائع، هي إفراده - عز وجل - بالألوهية؛ وهي استحقاقه للعبادة: لأن يُعبد وحده، ولا يُعبد غيره، سبحانه وتعالى.

وذلك هو معنى (لا إله إلا الله)؛ إذ الإله هو المعبود بحق؛ فيكون معنى الكلمة: لا معبود بحق إلا الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ - أي: يعبدون من دونه - ﴿هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج].

فالله - تبارك وتعالى - هو الإله الحق: المستحق للعبادة بذاته: بربوبيته وكمالته وأفضاله، وما عُبد من دونه، فهو معبود باطل، وعبادته كذب وافتراء، وظلم واعتداء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [البسَاء]، وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان].

وهذا التوحيد - توحيد الله بالألوهية - هو الدين كله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وهو الإيمان كله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهو الإسلام كله، كما قال تعالى: ﴿قَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج: ٣٤].

فإنَّ الدِّينَ هو الخضوع لله، وهو معنى العبادة، والإيمان هو الإيمان بالله، وهو الإقرار بتوحيده باطنًا وظاهرًا، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الانقياد له بالكليَّة؛ حتَّى لا يُزاحم حَقُّه حقٌّ، ولا يخالف أمره أمرٌ، ولا يعترض مراده هوًى ولا شهوةٌ، وذلك تحقيق التَّوحيد.

ولَمَّا كان توحيد الله بهذه المنزلة الرَّفِيعَة، وكان هو المقصِد الغائي مِنَ الخلق والشرع، جعل الله النَّاسَ مستعدينَّ له، ففَطَرَهُم عليه، وركَّبَ فيهمُ العقولَ التي تهتدي إليه، وأبلغ في الإعذار؛ فأرسل الرُّسُلَ تنبيهَ الغافلين وتذكُّرِ المُعْرِضين، وأنزل الكتب بالأدلة والبراهين، حتَّى قامتِ الحجَّة، وظهر الدِّين، واستبانَت الطريقُ للطَّالِبين.

فأمَّا الفطرة، فإنَّ الله - تعالى ذكره - قد خلق عباده موحِّدين، يعرفون ربَّ الخالق، ويحبُّونه، ويطلبونه وحده، ويقصدونه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وقال في الحديث الثُّدُسي: «إنِّي خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم»، أخرجهم مسلمٌ.^(١)

وقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفطرة»، متَّفَقٌ عليه،^(٢) وفي روايةٍ لمسلمٍ:^(٣) «إلَّا يُولَدُ على المِلَّة»، وفي روايةٍ لأبي عَوَانَةَ:^(٤) «إلَّا يُولَدُ على الإسلام»، وهما روايتان بالمعنى.^(٥)

فالله - تعالى ذكره - قد فَطَرَ النَّاسَ على مِلَّةِ التَّوْحِيدِ، وعلى الإسلام له؛ فأودع في القلوب معرفته؛ فلا تزال تتحرَّك بمحبَّته وقصده، لا تطمئنُّ إلَّا بذلك، ولا تسكنُ إلَّا إليه، حتَّى إذا وَفَّرَ فيها الإيمان، وافقها متشَوِّفَةً إليه، طالبةً له؛ فيحصل لها بهذا الائتلاف والتَّلاقِي مِنَ الأنس والبهجة ما تَطِيبُ به حياة المؤمن، ويحصل بفقد ذلك أو بضده مِنَ الوحشة والألم ما يقتضيه الشَّوقُ الفطريُّ إلى الإيمان، وما تقتضيه منافة الشُّركِ للفطرة الرَّاسخة في القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وهذه الفطرة راسخةٌ في النفوس، بل هي جزءٌ من التَّكوين النَّفسيِّ للإنسان، الَّذي لا يكون إنسانًا بغيره؛ فلا يُمكنُهُ التخلُّصُ منها، وإنَّما يجحدها معاندٌ، أو يكتُم صوتها مكابرٌ، أو يُصِمُّ أُذُنَيْه

١. (١٥٨ / ٨).

٢. "البخاري" (٢ / ٩٥)، و"مسلم" (٨ / ٥٢).

٣. (٥٣ / ٨).

٤. (٢٧١ / ٢٠).

٥. انظر "القضاء والقدر" للبيهقي (ص ٣٤٢).

دونها مُعْرِضٌ، لَكِنَّهُمْ جَمِيعًا يَنْكَشِفُونَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، حِينَ تَسْقُطُ مَعَانِي الْكِبَرِ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَتَجَرَّدُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وأما العقل، فقد رَكَّبَهُ اللهُ فِي الْقُلُوبِ؛ لِيَتَحَقَّقَ مِمَّا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ مَعَانِي الْإِيمَانِ، وَلِيُثَبِّتَ ذَلِكَ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ الْوَارِدَاتِ.

وهذه أعظمُ منافع العقل؛ فلا عَرَوْا نُفْيَ الْعَقْلِ عَمَّنْ قَوَّتْ لَهُذِهِ الْمَصَالِحَ، حَتَّى قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ - فِي الْكَفَّارِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَ الْنَعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فإذا قَلَّبَ الْعَاقِلُ طَرَفَهُ فِي الْوُجُودِ مِنْ حَوْلِهِ، لَحَظَ عَقْلُهُ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ، وَبَهَّرَتْهُ أَمَارَاتُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ فِيمَا يُدْرِكُ.

وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]؛ فَالسَّمَوَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ آيَةٌ، وَالْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ آيَةٌ، وَكُلُّ حَيٍّ يَدْبُ فِيهِمَا، فَهُوَ آيَةٌ، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ: [مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

أَيَا عَجَبًا، كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ .. هُ؟! أَمْ كَيْفَ يَجْعَلُهُ الْجَاهِلُ؟!

وَاللَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكِةٍ .. وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدٌ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ .. تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(٦)

فَتَسَاعَدَ بِذَلِكَ الْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ عَلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ؛ فَالْفِطْرَةُ - كَمَا تَبَيَّنَ - تَعْرِفُ الرَّبَّ وَتُحِبُّهُ، وَالْعَقْلُ - كَمَا تَقَرَّرَ - يُوَكِّدُ ذَلِكَ وَيُثَبِّتُهُ، وَأَيْضًا: فَالْفِطْرَةُ تَحْرِكُ الْعَقْلَ لِيَنْظُرَ، ثُمَّ تَقْبَلُ مِنْهُ مَا يُدْرِكُ، وَالْعَقْلُ يَسْتَدِلُّ بِالْفِطْرَةِ وَيَقْرَأُ الْقَلْبَ عَلَى مَا يَجِدُهُ مِنَ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ؛ فَهُمَا مُتَعَاوَنَانِ مُتَكَامِلَانِ، لَا تَنَافَرَ وَلَا تَعَارُضَ.

فَكَمَا أَنَّ تَوْحِيدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَعْظَمُ الْحَقَائِقِ فِي الْوُجُودِ، فَهُوَ أَكْثَرُهَا فِي النُّفُوسِ وَأَوْضَحُهَا فِي الْعُقُولِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أَيْ: لَا شَكَّ فِي وَحْدَانِيَّةِ اللهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا.

٦. "التَّمثِيلُ وَالْمَحَاضِرَةُ" لِلتَّعَالِيِّ (ص ١١).

وأما الرُّسل؛ فقد جاءوا بالدُّعاء إلى تحقيق التَّوحيد وإبطال التَّنديد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وأيدهم الله - جلَّتْ نعمته - بالكتب: المُشتملة على الأدلة والبراهين: الَّتِي تَفْصِلُ بِالْحَقِّ: بتقرير التَّوحيد ونفي الشِّرك، كما قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا التَّوحيد الَّذِي جاءت به الرُّسل هو المُستقرُّ في الفِطْر، وَالَّذِي تَطْلُبُهُ النُّفوس، وتحتاجه، ولا تطمئنُّ بغيره، وَالَّذِي تَوَجَّهَ العقول، وتقبله، ولا يستقيم فيها خلافة؛ فالله الَّذِي أرسل الرُّسل بدينه وتوحيده هو الَّذِي خلق المرسلين إليهم، وهَيَّأَهم لِقَبول التَّوحيد والدين، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف].

وبهذا يُعلم أَنَّ دعوة الرُّسل في أصلها رَدُّ للنَّاسِ إلى سَوَاءٍ خَلَقْتَهُم: الَّتِي جَبَلَهُمُ اللهُ عليها، فلذلك سَمَّى اللهُ إِيَّاهُ الكافر (توبة)، فقال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذُوا مِنْهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي﴾ [التوبة: ١١]؛ فقولُه: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي مِنَ الشِّرك؛ فرجعوا إلى أصل فِطْرَتِهِمُ الَّتِي خَلَقُوا عليها، وانصرفوا عنها.

فكان للأنبياء في نفس كلِّ مَدْعُوٍّ شاهدٌ مِنَ الفِطْرَةِ يُصَدِّقُ دَعْوَتَهُمْ، وفي قلب كلِّ مَدْعُوٍّ عاضدٌ - هو العقل - يُوَدِّدُ إلى دَعْوَتِهِمْ؛ فنبَّهوا النَّاسَ على ما غَمَرَتِ الشَّهَوَاتُ والشُّبُهَاتُ في قلوبهم من طلب التَّوحيد، وبصَّروا الغافلين بدلالة ما حولهم مِنَ الآيات والبراهين على وجوب التَّوحيد؛ فكان الإيمان بهم حَتْمًا على كلِّ مُنْصِفٍ، ولا يجيد عنه إِلَّا عاتٍ في العناد والمكابرة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص]، وقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٣]؛ ففَرَنَ بين الأمرين لتلازمهما.

والحاصل أَنَّ توحيد العبادة هو مَقْصِدُ الخلق، وقد خُلِقَ النَّاسُ على هِيئَةٍ تقبله، بل تَطْلُبُهُ، ولا تطمئنُّ بغيره، وَأَنَّ توحيد العبادة هو مَقْصِدُ الشَّرْع، وَإِنَّمَا بُعِثَتِ الرُّسل به، وشُرِّعَتِ الشَّرَائِعُ لأجله، حتَّى إِنَّ أدقَّ تفاصيل الشَّرَائِعِ تُفْضِي بِحُكْمِهَا إلى تحقيق التَّوحيد وتكميله.

ومن تَتَبَعَ سِيرَ الأنبياء - عليهم السَّلَامُ - وجدَّالَهُمُ لأقوامهم، رأى أَنَّ الخصومة معهم إِنَّمَا كانت في توحيد العبادة؛ فقال نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشُعَيْبٌ لأقوامهم: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وهذا ظاهرٌ في قصَّة كلِّ نبيٍّ مع قومه.

وَتَجَلَّى ذَٰلِكَ فِي قِصَصِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - مع قومه؛ فَإِنَّهَا تَكَادُ تَخْلُصُ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَتَقْرِيرِهِ وَرَدِّ الشُّبُهَاتِ عَنْهُ؛ حَتَّى صَارَ إِمَامًا مُقْتَدَى بِهِ فِي ذَٰلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التَّحَلُّ] ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التَّحَلُّ].

وعلى سبيل الأنبياء قبله - كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّاهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

فبعثه الله - عز وجل - رحمة للعالمين: ليرحم ببعثته الناس أجمعين؛ فجعل رسالته سبباً للهداية، وسبيلاً للنجاة؛ فمن الناس من قبل هذه النعمة؛ فاتبعه؛ فرحمه الله، ونجى، ومن الناس من جحد هذه النعمة؛ فكفر به؛ فاستحق العقاب، وهلك، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]؛ فهو - صلى الله عليه وسلم - رحمة بدلالته على التوحيد وتحذيره من الشرك، وأي رحمة أعظم من أن يدل الله عباده - وله الحمد كله - على طريق الفلاح، وأن ينبههم على طريق الهلاك؟!

ومن استقرأ سيرته - صلى الله عليه وسلم - رآها توحيداً كلياً، تحقيقاً للتوحيد، ودعوةً إليه، وجهاداً فيه، وجدالاً عنه، وصبراً عليه وعلى الأذى فيه.

فقد جاء - صلى الله عليه وسلم - على قوم قد عمهم الشرك، واندثرت فيهم معالم التوحيد، كما - تعالى - في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»، أخرجه مسلم. (٧)

فكانت العرب في جاهلية مظلمة؛ فجاءها النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنور التام، ولا بد لدرك حقيقة التوحيد من فهم تلك الجاهلية الظلمة؛ ليتضح فضل ما يضافها من نور الإيمان والإسلام، وبضدّها تتبين الأشياء.

فالعرب مع انحرافهم عن دين أبيهم: إبراهيم - عليه السلام - إلى عبادة الأوثان، كانوا يعرفون الله عز وجل، ويعظمونه، ويعتقدون كماله تفردّه بالربوبية في الجملة.

وكانوا يُشركون به - سبحانه - في بعض أسمائه الحسنی وصفاته العليا؛ فاشتقوا من (الله)، فقالوا: (اللات)، ومن (العزیز)، فقالوا: (العزى)، وكانوا يصدّقون الكُهان والعَرافين في ادّعاءهم علم الغيب.

وكانوا يُشركون به - سبحانه - في بعض معاني الربوبية؛ فيعتقدون تأثير الكواكب والنجوم في الحوادث الأرضية، فيقولون في المطر مثلاً: «مُطرنا بنوء كذا وكذا»، وكانوا يتطيرون ويتشاءمون، وكانوا يعتقدون نفع التمام ونحوها.

لكنهم في الجملة كانوا يُفردون الله بالكمالات والربوبية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٨١) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ^(٨٢) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ^(٨٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ^(٨٤) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٨٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ^(٨٦) [المؤمنون].

وقال: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ^(٨٧) [العنكبوت]، ثم قال: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(٨٨) [العنكبوت].

وقال: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ^(٨٩) [الزمر].

وقال: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ^(٩٠) [الزخرف].

وقال: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ^(٩١) [الزخرف].

ومع ذلك، فقد كانوا يعبدون مع الله - سبحانه وتعالى - غيره، وكان هذا أكثر شركهم، وأعظمه، وقد أخبر الله عنهم بذلك، فقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ^(٩٢) [يوسف]، أي: يؤمنون بأنه الخالق الرّازق، ثمّ يُشركون معه غيره في عبادته. ^(٩٣)

ولذلك كانوا يقولون في حجّهم: «لبيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، أخرجه مسلم؛ ^(٩٤) فيُقرّون بأنّ الله لا شريك يساويه، يَعْتُونَ: في ربوبيته وخلقه وملكه، لكنهم يجعلون له شريكاً في العبادة، مع إقرارهم أنّ هذا الشريك مملوك لله، ولا يملك من دون الله شيئاً.

٨. انظر "تفسير الطبري" (١٦ / ٢٨٦).

٩. (٨ / ٤).

فإنما كانوا يعتقدون في أصنامهم أنها تُقرّبهم إلى الله، وتشفع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ولذلك استنكروا دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى توحيد المعبود؛ فقالوا: ﴿أَجْعَلِ آلَ اللَّهِ إِلَهًا وَحِيدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ١].

ومع ذلك، فكانوا يعلمون في قرارة أنفسهم بطلان ما هم عليه من الشرك؛ فكانوا إذا اضطُرُّوا، أخلصوا لله، وأعرضوا عن الأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وهذا هو التوحيد الخالص الذي فطر الله الناس عليه، ولا يُمكنهم التخلص منه، ولا نزعه من نفوسهم، لكنهم - كما سبق - قد يعاندون ويكابرون، فإذا ألجأتهم الضرورة، سلّموا بما يجدونه في قلوبهم وفطرهم.

وكان العرب يعتمدون في شركهم على تقليد الآباء المعظمين، والتعصّب لهم، واستكبار تخطئتهم وذمّهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وكانوا مع ذلك يستدلّون بشبهات يحاولون بها تصحيح تناقضهم في عبادة غير الله - عزّ وجلّ - مع اعترافهم أنّ معبوداتهم هذه لا تُضرّ ولا تنفع بنفسها؛ فكانوا يدعون أنّ لأصنامهم مكانة عند الله؛ فيعبدونها لتشفع لهم عند الله؛ فتنفذ لهم بوجاهتها وقربها ما يريدون من تحصيل خير أو دفع شرّ.

فمنهم من يزعم أنّها رموز للملائكة، ويزعمون أنّها بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُو بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٢-١٥٣].

ومنهم من كان يتخذها رموزاً لرجال صالحين، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [١٥٦] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْدُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، ومن هذا ما قيل في (اللات) أنّه رجلٌ كان يُلْتُ السَّوِيقَ فيطعم الناس.

وكان منهم من يعبد الجن؛ ولعل ذلك لما يرى لهم من قُوَى زائدة على طاقة البشر، وعلوم بمُغَيِّبات التي لا يدركها البشر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقال: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ].

وكان منهم من يستدلّ بالقدر؛ فيقول إنّ الله قدّر ذلك وشاءه؛ فلا بدّ أنّه رضيّه وأحبّه، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٦] قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل].

فيتبيّن لنا من معرفة عقيدة المشركين في الجاهليّة معنى كلمة (لا إله إلا الله)؛ فليس معناها (لا ربّ) أو (لا خالق) أو (لا قادر على الاختراع) أو (لا كامل في صفاته) أو (لا مُنَزَّه عن المثل)؛ لأنّ العرب كانت تُقرّر أنّ الله - عزّ وجلّ - متفردٌ بذلك كلّهُ، وما كانت لِيَتَمَنَعَ مِنَ الشَّهَادَةِ بِهِ، لكنّهم - بسلاسة فهمهم للغة - عرفوا أنّ (الإله) هو المعبود بحقّ، وأنّ معنى الكلمة (لا معبود بحقّ إلا الله)، ولذلك قالوا: ﴿أَجْعَلِ آلَ اللَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص]؛ فاستكروا أن يُجعل المعبود واحدًا.

فكانت هذه هي عُقْدَةُ الخصومة بين النبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - وقومه؛ فوجدهم يُشْرِكُونَ مع الله غيره في عبادته، فأمرهم بتوحيد الله بالعبادة، وجاهدهم على ذلك.

ولمّا كان توحيد الألوهيّة هو عُقْدَةُ النزاع بين النبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - والمشركين، عُني القرآن الكريم به، وأكثر من الدلالة عليه بالأدلة العقلية الواضحة المُقْنِعة، وقطع كلّ الشبهات التي تردّ عليه، وجلّاه غاية التّجليّة، حتّى استبان الحقّ للمنصفين، وانقطع عُذْرُ المشركين.

وهذه البراهين القرآنيّة كثيرةٌ جدًّا؛ وألخصها في هذه العُجالة في أربع طُرُق، وأمثّل لكلّ طريقة منها بما يُفهم مقصودها، ويُنبيّه على ما يدخل فيها من الآيات الكثيرة.

فالطريقة الأولى: أدلة استحقاق الله للإفراد بالعبادة، وذلك ببيان المعاني التي يستحقّ بها على خلقه أن يعبدوه، ولا يستحقّ سِواه شيئًا من العبادة؛ لانتفاءها عنه، وهي أربعة.

أولها: دليل الربوبية؛ فربُّ العالمين هو المستحقُّ للعبادة؛ لأنه موجدُ الخلق، ومالكهم، والمتصرف فيهم، ومن ليس ربًّا، فلا يستحقُّ شيئاً من العبادة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [ال عمران]، وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم].

وفروع الربوبية هي الخلق والملك والتدبير، فخالق الأشياء من العدم هو المستحقُّ للعبادة، ومالك الملك هو المستحقُّ للعبادة، والمتصرف في الكون هو المستحقُّ للعبادة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [التحل]، وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [الأنعام].

ومن ذلك قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الثمروذ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وثانيها: دليل الجمال والكمال؛ فالمتَّصف بالجمال التام، والمتحقِّق بالكمال المطلق - هو المستحقُّ للعبادة، والنفوس مجبولة على حبِّ الجمال والكمال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرحمن]، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [إياك نعبد وإياك نستعين] [الفاتحة: ٢-٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة].

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في دُبُر كل صلاة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وثالثها: دليل شكر المُنعم؛ فالنَّاس مفطورون على شكر المُنعم، ومحبَّة من أحسن إليهم، والله وحده هو الرزاق المُعطي لكل خيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ويروى في الحديث القدسي أن الله - تعالى - قال: «إني والجن والإنس في نبيٍّ عظيم، أخلق ويُعبد غيري! وأرزق ويُشكر غيري!» أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان". (١٠)

ويروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «أحبُّوا الله لما يَغْدُوكُم مِن نِّعَمِهِ»، أخرجه الترمذي (١١) وقال: «حسنٌ غريبٌ»، وصحَّحه الحاكم (١٢) والضياء (١٣) وضعفه الألباني (١٤) وغيره.

ورابعها: دليل النَّفع والضَّر؛ فالعابد يقصد في عبادته تحصيل منافع الدنيويَّة والأخرويَّة، ودفع مخاوفه الدنيويَّة والأخرويَّة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

ومنه مناظرة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

١٠. (٦ / ٣١٠).

١١. (٣ / ١٦٢).

١٢. (١٢ / ٣٤٨).

١٣. (٤ / ٨).

١٤. "تخريج فقه السيرة".

وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧١﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٢﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٧٣﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٤﴾ [الشعراء].

ويروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لرجل: «كم تعبد إلها؟» قال: «أعبد سبعة: ستة في الأرض وواحدًا في السماء»، فقال له: «فأيهم تعدُّ لرغبتك ورهبك؟» قال: «الذي في السماء»، أخرجه الترمذي، (١٥) وقال: «حسنٌ غريبٌ»، (١٦) وذكر فيه الموفق بن قدامة (١٧) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال له: «فاترك الستة، واعبد الذي في السماء».

والطريقة الثانية: هي الأمثال المضروبة للتوحيد والشرك، التي تبين حسن التوحيد، وأنه حقٌ وعدلٌ وصدقٌ، وفُبح الشرك، وأنه باطلٌ وظلمٌ وكذبٌ.

فمنها قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم].

ومنها قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزُّمَر].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل].

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل].

والطريقة الثالثة: عيبُ آلهة المشركين بما يوجب بطلان عبادتها، ويُنبِّه على منع عبادة من سوى الله مطلقًا.

١٥. (٣٩٧ / ٥).

١٦. انظر "تحفة الأشراف" (٨ / ١٧٥).

١٧. في "لمعة الاعتقاد".

فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٨٦ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ ١٨٧ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ١٨٨ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ١٨٩ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم].

ومنه مناظرة إبراهيم - عليه السلام - لقومه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقُومُ إِلَى بَرِيءٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

والطريقة الرابعة: ردُّ شبهات المشركين، وقطع ما يتعلّقون به في تسويغ شركهم، وبيان بطلانه بالردود العقلية المُنقِعة.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ٢٢ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، وهذه الآية - كما قال العلماء - تقتلع شجرة الشرك من جذورها.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ١٣٠ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وهذه البراهين العقلية الصحيحة تؤكد ما بدأت به أولاً من كون التوحيد أعظم الحقائق ثبوتاً؛ لكثرة أدلته، ووضوحها، وقوتها.

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا حَكَى اللَّهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، عَرَفَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ
الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَرَفَ مَا يَخَالِفُهُ مِنْ مَقَالَاتِ أَهْلِ الْبِدْعِ: الَّتِي تَحْصُرُ التَّوْحِيدَ
فِي الرُّبُوبِيَّةِ أَوْ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ؛ فَإِنَّ تَوْحِيدَهُ هَؤُلَاءِ لَا يَبْعُدُ عَنِ دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى.

وإنَّما المقصود في هذا المَقَامِ التَّنْبِيهُ وَالْإِشَارَةُ، وَبَسْطُ ذَلِكَ - مَعَ وَضُوحِهِ - يَطُولُ.

وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَعْلَمُ، وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَسَلَّمِ التَّسْلِيمِ الْأَتَمَّ.

